

وقفه مع منهج طه حسين النقدي

ملخص

يتناول هذا المقال تطور منهج رائد من رواد النقد الادبي العربي الحديث؛ ذلك هو النقد الادبي عند طه حسين (1889-1973). يتعرض مقالنا هذا بالخصوص إلى المراحل الأولى في تدرجه النقدي، وأهم تلك المراحل (المرحلة النقدية التاريخية)؛ فقد حاولنا أن نقف عند مرحلة كتاب (في الأدب الجاهلي) الذي يعد من أهم وقات طه حسين النقدية خلال مراحل الدراسة والنقدية الحديثة. أما أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا المقال فهي أن طه حسين يرجع إليه الفضل في ارساء قواعد هذا المنهج في الدراسة الأدبية العربية الحديثة، وجل الدارسين الذين جاؤوا من بعده يعدون تلامذة له في هذا المنهج في الساحة الأدبية العربية الحديثة. وتوصلنا في هذا المقال كذلك إلى تبيان مصادر طه حسين الفكرية والنقدية وهي نوعان: مصدر عربي تراثي، ومصدر غربي حديثي استند فيه بصورة خاصة إلى أستاذه المستشرق (كارلو نالينو).

محمد لخضر زبايدية
معهد اللغة العربية وادابها
جامعة باتنة

Résumé

Dans cet article, nous avons essayé de démontrer au lecteur arabe la nouvelle méthodologie que Taha Hussein avait appliquée à la littérature préislamique.

Certes, Taha Hussein était influencé par la méthode occidentale, surtout la méthode cartésienne. En effet, Taha Hussein, dans sa critique, s'appuie sur la raison qu'il considère comme le seul moyen pour atteindre la vérité dans toute recherche. Notre critique ne tiendra compte, dans cette étude, ni de la race, ni de la religion, ni de la nationalité, tout sentiment risquant inévitablement de fausser l'histoire littéraire.

L'auteur insiste sur la nécessité chez le chercheur d'écarter tout à priori et d'aborder le sujet de la recherche avec un esprit objectif qui ne recourt point à des données antérieures.

يتناول هذا المقال شخصية من الشخصيات الحديثة و المعاصر، و هذه الشخصية هي شخصية طه حسين، الذي يمكن أن يقال في وصفها ما قيل قديما في الشاعر العربي الأصيل المتنبي، الذي شغل الناس بشعره. و من هنا نستطيع القول بأن حياة طه حسين، و هي حبلت بالأحداث و المواقف المختلف، تعبر عن شخصية متميزة، استطاعت أن تحتل صدارة عالم التفكير الأدبي، في القرن العشرين، و من ثمة، لا نغالي إذ قلنا أن طه حسين يعد معلما من المعالم البارزة في نهضتنا الأدبية الحديثة لأن كتاباته تناولت جوانب مختلفة من تراثنا العربي، قديمه و حديثه و من أبرز هذه الجوانب، الجانب النقدي، الذي كانت له فيه إسهامات متميزة. و بفضل جهوده التي لا ينكرها أي دراس في بعث الحركة الأدبية و النقدية، فقد إنكب طه حسين على دارس أثار القدماء، و أعمال المحدثين، لا يستوحي في ذلك إلا ثقافة الثرية، التي ربطت بين الثقافة العربية الأصيلة، و الثقافة الغربية الواعية. و في هذا السياق نستطيع القول أن شخصية

طه حسين كانت شخصية متفردة لا تقفو أثر أحد، و لا تقلد غيرها، لأنه كان يعتمد في أحكامه النقدية على عقله الذي يستطيع به إدراك الكمال في العمل الأدبي.

و يسلط المقال الضوء على جانب واحد من أبرز الجوانب التي أعمل فيها طه حسين فكرة النقدي، و هذا الجانب هو محاولة وصل النتاج الأدبي بالزمن الذي قيل فيه، و البيئة التي عاش فيها و الجماعة التي عبر عنها و هو ماأسميناه بالمنهج التاريخي عند طه حسين.

صحيح أن الكتابات التي تناولت طه حسين كثيرة و متنوعة، إلا أن هذا الجانب لم يحظ حتى يومنا هذا فيما نعلم بدراسة جادة توضح ملامحه، و أبعاده، و في هذا المجال تأتي أهمية هذه الدراسة في التعرف على منهج طه حسين التاريخي، و تقديمه للقارئ، معتمدين في ذلك على كتابات طه حسين المختلفة التي تدل بوضوح على أنه كان يطبق المنهج التاريخي في جل كتاباته. و المقال لا يتناول بالدراسة جميع هذه الكتب، و إنما سيكتفي بكتاب واحد ألا و هو كتاب " في الأدب الجاهلي " الذي تجلى فيه ذا المنهج التاريخي عند طه حسين. و قبل أن نتناول هذا الكتاب بالدراسة وفق المنهج الذي رسمه طه حسين لنفسه، يجدر بنا أن نشير إلى الأسس العامة التي يقوم عليها هذا المنهج من المناهج النقد الأدبي، لأن هذه الأسس قد تمثل عناصر المفهوم العام لهذا المنهج في مجال النقد.

و من الملاحظ أن المناهج النقدية كثيرا ماتداخلت في أعمال النقاد، حتى يستعصي تميز بعضها من بعض في أعمال النقاد، إلا أن معالم الرؤية اتضحت أكثر في هذا القرن، و أصبح لكل منهج من المناهج النقدية معالمه، وسماته المميزة له. فالمنهج التاريخي يحاول دراسة الأدب من خلال ارتباطه بالتاريخ أو بعبارة أصح دراسته من خلال الظروف والأحداث التي أحاطت بالأديب، والتي لا شك، أنها قد أثرت فيه، و هو ينشئ العمل الأدبي. فأصحاب هذا المنهج يرون: " أن أدب أية أمة من الأمم، هو صورة لحياتها السياسية، و الإجتماعية، في حقب تاريخية متعاقبة. و لذلك يمكننا أن نعد أدب هذه الأمة مصدرا من مصادرها التاريخية، لأن الأديباء يعايشون الأحداث المختلفة، فيصورونها بأدبهم، كما يتأثرون بها أيضا. و نستطيع أن نجد الأدلة على ذلك من أدبنا العربي في القرن الأول الهجري، فنجد صورة الحياة السياسية في شعر الخوارج، و الشعبية، و بني أمية، كما نجد الشعر الغزلي يمثل الحياة الاجتماعية في الحجاز، و الخطابة تمثل ما كان يعانيه الحكام من عدم استقرار في الحكم، كذلك الحال في أدبنا العربي المعاصر، فقد استوحى الأديباء تاريخنا الحديث، و معالم حضارتنا، و سجلوا كل هذا في أعمالهم الأدبية المختلفة شعرا و نثرا (1)

و نقاد هذا المنهج، إذا تصدوا لدراسة الأعمال الأدبية فإنهم يدرسونها من خلال الظروف و الأحداث التي عاشها الأديب، و أثرت فيه أثناء إبداعه للعمل الأدبي، و لهذا

A cet égard, on peut remarquer que toutes les idées de Tahar Hussein sont pour le moins audacieuses: pour la première fois dans l'histoire moderne de la littérature arabe, un écrivain musulman renverse avec une fougue incomparable les idoles de cette littérature.

نجد أصحاب هذا المنهج يهاجمون المناهج الأخرى، حيث يرون أن التاريخ هو المجال الوحيد الذي نستطيع من خلاله دراسة الأعمال الأدبية. فمثلا نجد "بروكس" يرى أن المنهج النفسي لا يصلح لدراسة الأعمال الأدبية فيقول: حقائق التحليل النفسي فما عادت أنفع من سواها، و تظل كل الحقائق عنه عديمة الجدوى، حتى يأتي كاتب السيرة فيستوعبها، و يتمثلها تحت ضوء من قدرته الحدسية الاستبصارية، بكل ماتتمتع به من تحسس للحقيقة و التناسب. و هذه القدرة أداة ذهنية عن ذكاء و واقع الأمر أن الذكاء يشغلها عن العمل، فليست العلة هي التي تهمننا في السيرة، و إنما الشخصية نفسها". (2) ومما لا شك فيه أن النقاد الذين ينتمون إلى المذهب الكلاسيكي لم يحاولوا وضع الأديب في عصره بل لم يهتموا حتى بشرح العمل الأدبي، و الحكم عليه من خلال الربط بين حياة مؤلفه، و بيئته و جنسه، و إنتاجه. لكن بمجيئ النقاد الذين ينتمون إلى المذهب الرومانتيكي تغيرت نظرة النقاد إلى الأدب، وقد تجلت هذه النظرة في اتجاهين كبيرين: " أحدهما ينظر إلى الأدب في علاقته بمؤلفه وعلى رأس الداعين إلى هذا الإتجاه " مدام ديستال". والاتجاه الثاني ينظر إلى الأدب من خلال علاقته بمؤلفه وعلى رأس الداعين إلى هذا الإتجاه " سانت بييف " وهذان الإتجاهان هما العمود الفقري للمنهج التاريخي(3).

ومن خلال هذا المنظور نحاول أن نتعرف على جهود طه حسين في إدخال هذا المنهج في الدراسات الأدبية، كما سنحاول أن نكشف عن المصادر التي استقى منها منهجه هذا، فجهوده قد بدأت تظهر للقارئ في سنواته الأولى حينما التحق بالجامعة الأهلية، حيث تلقى على أيدي المستشرقين أصول هذا المنهج الحديث الذي نجده باديا في تلك المقالات التي كان ينقد فيها كتاب " النظرات" للمنفلوطي، وكذلك كتاب جورج زيدان في " تأريخه لأدب".

وقد ظل علن هذا الحال إلى أن دخل مجال الدراسة الأدبية بعلم جاد وذلك سنة 1914 حيث عده الباحثون المحدثون الباكورة الأولى الناضجة في حقل الدراسات الأدبية المنهجية الحديثة، وذلك العمل هو "ذكرى أبي العلاء". وقيمة هذا العمل تتمثل في أنه أول ترجمة عصرية متعمقة في الأدب العربي الحديث مما جعل جل النقاد العرب المحدثين يقولون بأن طه حسين متأثر بمنهج " تين" * وقول كهذا لاشك أنه يفتقد إلى الروح العلمية الصحيحة لأن فيه شئ من المبالغة التي لا يقبلها أي باحث يحترم نفسه فمن المعروف أن كتابات " التين " لم تكن قد ترجمت إلى العربية آنذاك ليطلع عليها طه حسين وهو يعد بحثه، كما أن معرفة طه للغة الفرنسية كانت ضعيفة بحيث لاتسعه في التعرف على أعمال " تين " في لغتها الأصلية، ولكننا لا نستبعد أن يكون طه حسين قد سمع عن ذلك المنهج من أساتذته المستشرقين الذين كانوا يحاضرون في الجامعة الأهلية، ومن أبرز هؤلاء الأساتذة " كارلو نالينو " الذي استطاع أن يؤثر في طه حسين تأثيرا لاحد له مما جعله يعترف بذلك صراحة إذ يقول: " تعلمنا أن الأدب مرآة حياة العصر الذي ينتج فيه لأنه إما أن يكون صدى من أصدائنا، وإما أن يكون دافعا من دوافعها، فهو متصل بها على كل حال، وهو مصور لها على كل حال، ولا سبيل إلى درسه وفقهه، إلا إذا درست الحياة التي سبقت فأنثرت في نشأته والتي عاصرت فتأثرت

به وأثرت فيه، والتي جاءت في عصره فتلقت نتائجه وتأثرت بها فلأدب مظهران إذن: مظهره الفردي لأنه لا يستطيع أن يبرأ من الصلة بينه وبين الأديب الذي أنتجه ومظهره الاجتماعي، لأن هذا الأديب نفسه ليس إلا فردا من جماعة، فحياته لا تتصور لاتفهم ولا تحقق إلا على أنه متأثر بالجماعة التي يعيش فيها وهو في نفسه ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن يكون أدبه إلا ظاهرة اجتماعية. كل هذا سمعناه وفهمناه في تلك الدروس التي كان الأستاذ " نالينو " يلقيها علينا حين كان هذا القرن في العاشرة من عمره. وكل هذا كان جديدا بالقياس إلينا في تلك الأيام، وبالقياس إلى الأزهريين هنا بنوع خاص، فمن الطبيعي أن يحدث في نفوسنا أعمق الآثار وأبعدها مدى، وأن يطبع حياتنا العقلية بطابع النقد الحديث " (4).

ولا يعيننا هنا أن نتتبع المصادر الذي استسقى منها طه حسين منهجه هذا، بقدر ما يعيننا أن نؤكد أن طه حسين قد أمن إيمانا راسخا بضرورة هذا المنهج، وجدواه في دراسة الأعمال الأدبية المختلفة شعرا ونثرا. وقد درس الأدب الجاهلي فوق هذا المنهج التاريخي الذي أحدث به ضجة كبرى في الأوساط الثقافية، لأنه أثار جملة من الشكوك حول هذا الشعر الذي يراه أنه لا يصور الحياة الجاهلية تصويرا صحيحا، فهو يذهب إلى أننا إذا أردنا أن ندرس الحياة الجاهلية، فلا يصح أن ندرسها من خلال تلك الفنون الأدبية التي تنسب إلى العصر الجاهلي، إنما يجب أن ندرسها من خلال القرآن الكريم والشعر الأموي، لأن القرآن الكريم هو مصدر أساسي لفهم الحياة الجاهلية.

فتراه يقول: " إنني لا أنكر الحياة الجاهلية، وإنما أنكر أن يمثلها هذا الأدب الذي يسمونه الأدب الجاهلي. فإذا أردنا أن ندرس الحياة الجاهلية فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير وقس بن ساعدة وأكثم بن صيفي لأنني لا أثق بما ينسب إليهم وإنما أسلك إليها طريقا أخرى، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها من القرآن.

فالقرآن مرآة للعصر الجاهلي، ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه. أدرسها في شعر هؤلاء الشعراء الذين عاصروا النبي وجادلوه في شعر الشعراء الآخرين الذين جاءوا بعده ولم تكن نفوسهم قد طابت عن الآراء والحياة التي ألفها أبائهم قبل ظهور الإسلام، بل أدرسها في الشعر الأموي نفسه، فلست أعرف أمة من الأمم القديمة استمسكت بمذهب المحافظة على الأدب ولم تجدد فيه إلا بمقدار كالأمة العربية. فحياة العرب الجاهليين ظاهرة في شعر الفرزدق وجريير وذي الرمة والأخطل والراعي، أكثر من ظهورها في هذا الشعر الذي ينسب إلى طرفة وعنترة وبشر بن خازم " (5).

ويحاول طه حسين ضرب أمثلة أخرى ليدعم بها وجهة نظره، فالأدب الجاهلي لا يصور الحياة الجاهلية كما صورها القرآن الكريم الذي يراه أنه أكثر صدقا في تصوير الحياة العقلية للجاهليين، فالقرآن يمثل: " حياة عقلية قوية، يمثل قدرة على الجدل والخصام أنفق القرآن في جهادها حظا عظيما، أليس القرآن قد وصف أولئك الذين كانوا يجادلون النبي بقوة الجدل والقدرة على الخصام والشدة في المحاور؟ وفيهم كانوا يجادلون ويخاصمون ويحاورون؟ في الدين وفيما يتصل بالدين من هذه المسائل المعضلة التي ينفق الفلاسفة فيها حياتهم دون أن يوفقوا لحلها في البعث في الخلق، في

إمكان الاتصال بين الله والناس في المعجزة وما إلى ذلك. افتظن قوما يجادلون في هذه الأشياء جدالا يصفه القرآن بالقوة ويشهد لأصحابه بالمهارة أفتظن هؤلاء القوم من الجهل والغبوة والغلظة والخسونة بحيث يمثلهم هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين؟ كلا لم يكونوا جهلا ولا أغبياء، ولا غلاظا ولا أصحاب حياة خشنة جافية وإنما كانوا أصحاب علم وذكاء وأصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة " (6).

ويستمر طه حسين في إنكاره لهذا الأدب لأنه يصور الحياة السياسية والإقتصادية للعرب في جاهليتهم تصويرا غير مطابق للواقع الذي كانوا يعيشونه، فهو بصورهم معتزلين، منقطعين عن العالم الخارجي لا صلة تربطهم بغيرهم سياسيا أو إقتصاديا ويفند طه حسين تلك الصورة التي صورها الأدب الجاهلي معتمدا على ما جاء في القرآن الكريم فتراه يقول:

فكما أنك عرفت من القرآن وحده أن قد كانت للعرب في الجاهلية حياة تجارية خارجية وصلت بينهم وبين الأمم الأجنبية " (7).

إذن فالقرآن يدلنا بوضوح على أن العرب لم يكونوا معتزلين ولا منقطعين عن العالم الخارجي، فقد كانوا متصلين بالروم والفرس لدرجة أنهم كانوا منقسمين إلى قسمين قسم يناصر الروم على الفرس وقسم آخر يناصر الفرس على الروم. وأما فيما يتعلق إتصال العرب بالعالم الخارجي في المجال الإقتصادي، فإن إحدى سور القرآن الكريم تثبت بوضوح لا يدع مجالا للشك، أن العرب كانوا يقومون برحلتين تجاريتين في كل عام، واحدة إلى الشام حيث الروم، والثانية إلى اليمن بجوار الحبشة، وكذلك فيما يتعلق بالحياة الإقتصادية الداخلية التي نعتقد أنها قوام الحياة الإجتماعية. فطه حسين يرى أن الأدب الجاهلي لم يصور لنا هذه الحياة، بينما القرآن الكريم قد صورها تصويرا لا يستطيع أي انسان أن ينكرها، فالقرآن الكريم قد صور الحياة الإجتماعية لعرب الجاهلية وقسمها إلى طبقتين كبيرتين: طبقة الممتازين، وطبقة المستضعفين، كما وضح القرآن تلك العلاقة السيئة التي كانت قائمة بين هاتين الطبقتين، طبقة الممتازين تضم الأثرياء الذين كانوا يعملون على استغلال الضعفاء، وهم الذين يشكلون الأغلبية في المجتمع الجاهلي. واستطاع طه حسين أن ينبهنا إلى تلك الأوضاع الفاسدة التي يصورها الأدب الجاهلي، في حين أن القرآن الكريم قد صورها تصويرا دقيقا، حيث حرم الربا، وفرض الزكاة، وحث على الصدقة وتحرير الرقاب. فنجدة يقول:

" أفتظن أن القرآن كان يعني هذه العناية كلها بتحريم الربا والحث على الصدقة وفرض الزكاة لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والإضطراب بحيث تدعو إلى ذلك؟ فالتمس لي هذا أو شيئا كهذا في الأدب الجاهلي، وحدثني أين تجد في هذا الأدب شعره ونثره ما يصور لك نضالا بين الأغنياء والفقراء " (8).

ويطبق طه حسين نقطة أخرى نعتقد أنها جد مهمة في دراسة أدب أي أمة من الأمم وهذه النقطة تتجلى في الحالة النفسية، حيث يرى طه حسين أن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهلية لم يعكس لنا هذا الجانب بوضوح، فالشعر الجاهلي كما يزعم طه حسين قد صور العرب أجوادا كراما، ينفقون المال دون حساب في سبيل إكرام الضيف مثلا، بينما طه حسين يرى أن العرب ليسوا كلهم كراما، وإنما منهم الكريم ومنهم البخيل، ويستدل

على ذلك بأن القرآن الكريم يلج في ذم البخل و الطمع و الظلم، و لو لم تكن هذه المظاهر سائدة في المجتمع الجاهلي، لم أشار إليها القرآن الكريم، و في هذا السياق يرى طه حسين: " أن العرب في الجاهلية لم يكونوا كما يمثلهم الشعر أجودا متلفين المال مهينين لكرامته، و إنما كان منهم المتلاف و الحريص و كان منهم من يزدري المال، و منهم يزدري الفظيلة، و العاطفة في سبيل جمعة، و تحصيله. و في الحق أن العرب كانوا كذلك. و في الحق أن هذا ملائم كل الملائم لما يمثله القرآن من حياة العرب المحتضرين في مكة و المدينة، فقد كانت التجارة قوام الحياة في هاتين الحاضرتين. و من ذكر التجارة في الأمم القديمة، فهو مضطر أن يذكر معها الربا، و البخل، و الطمع، و الظلم، و هذه النقائص الفردية و الاجتماعية التي تتصل بحب المال، و جمعه، و التي لا يظهر الأدب الجاهلي منها شيئا (9).

و من هنا نلاحظ أن إصرار طه حسين على إنكاره للأدب الجاهلي بوصفه لم يصور الحيوانات المختلفة للمجتمع الجاهلي كما يزعم، ليصل في النهاية إلى أن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهليين لم يصور الحياة الدينية التي كانت سائدة في ذلك العصر، و إن صورها غامضة، بريئة من الشعر الديني القوي، في حين يرى أن القرآن الكريم قد صور هذه الحياة الدينية تصويرا صادقا. فنجد طه حسين يقول: " أوليس عجيبا أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين، و أما القرآن فيمثل لنا شيئا آخر، يمثل لنا حياة دينية قوية... فالقرآن إذن أصدق تمثيلا للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذي يسمونه الجاهلي" (10).

ويسترسل طه حسين في ذكر الأدلة التي تدعم وجهة نظره، و التي ترفض هذا الأدب، لأنه لا يصور المجتمع الجاهلي، و الشعر الجاهلي جزء من هذا الأدب، فأنت ترى أن هذا الشعر كما يوضح طه حسين قد أغفل ذكر البحر أو الإشارة إليه، و هذا ما يجعلنا نعتقد كما يدعي طه حسين أن العرب قد عرفوا البحر، معتمدا على ماورد في القرآن الكريم الذي ذكر العرب بأن الله قد سخر لهم البحر، و بأن لهم في هذا البحر منافع كثيرة كالملاحة، وصيد الأسماك، و استخراج اللؤلؤ و المرجان، و إذا سلمنا بهذا الزعم نقول إن العرب كانت لهم صلوات قوية بالبحر في حين أن الشعر الذي ينسب إلى هذا العصر لم يصور لنا تلك الصلة فإذا ذكر هذا البحر كما يرى طه حسين فهو ذكر يدل على الجهل لا أكثر و لأقل. فتراه يقول إن: " ذكر القرآن لهذا كله و امتنانه على العرب بهذا كله دليل قاطع على أن العرب لم يكونوا يجهلون هذا كله بل كانوا يعرفونه حق المعرفة و كانت حياتهم تتأثر به تأثرا قويا، و إلا فما غرض القرآن له و ما أقام الحجة به عليهم. فأين تجد هذا أو شيء من هذا في الشعر الجاهلي؟ (11).

و بعد استعراضنا لهذه النصوص على الرغم من قتلها إذا ما قورنت بصفحات الكتاب إلا أنها في اعتقادنا قادرة على تقديم صورة واضحة لمواقف طه حسين المختلفة إزاء الشعر الجاهلي. و مهما يكن الأمر فإن آراء طه حسين التي ضمها كتابه قد أثارت حافظة معاصرة، فتصدت له كوكبة من الدارسين لتفند آراءه. بل لا نغالي إذا قلنا هناك عشرات الكتب التي ظهرت لترد على هذه الآراء التي تناولت الشعر الجاهلي. و لسنا في حاجة أن نذكر كل ماجاء في هذه الكتب بالرغم من قيمتها، بل سنشير إلى جانب

واحد بوصفه هو المحور الأساسي الذي أقام عليه طه حسين كتابه، و هذا الجانب قد يتبدى في العنصر الديني بحيث أن الشعر الجاهلي لا يمثل الحياة الدينية لعرب الجاهلية، وإذا كان طه حسين قد أنكر الشعر الجاهلي بوصفه لا يصور الحياة الدينية لعرب الجاهلية، فإن هذا الشعر الجاهلي كما يلاحظ كثير من الدارسين قد صور الحياة الدينية تصويرا صادقا في كثير من نصوصه المأثورة، و من بين هؤلاء الدارسين محمد لطفي جمعة الذي أورد أكثر من خمسين بيتا من الشعر الجاهلي الذي يصف هذه الحياة الدينية و معبودات الجاهليين فترة يقول: "إننا أوردنا في هذه العجالة أكثر من خمسين بيتا تدل على الشعور الديني و العاطفة الدينية و تمثل آلهة الجاهليين و عبادتهم و نعجب من أن المؤلف حصر الشعر الجاهلي كله في امرئ القيس و طرفه و عنترة ثم ادعى أن الشعر الجاهلي كله عجز عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين" (12).

و نضيف نضا آخر حتى تتضح الصورة أكثر للقارئ الذي يريد أن يتعرف على آراء هؤلاء الدارسين الذين لم يألوا جهدا في الرد على إنكار طه حسين للشعر الجاهلي. و من بين هؤلاء الدارسين مصطفى صادق الرافعي الذي يعقب على رأي طه حسين القائل بأن الشعر الجاهلي لا يصور الحياة الدينية كما صورها القرآن الكريم فيقول: " فالقرآن الكريم يتحدث عن الأديان لأنه يقارعها و يقيم عليها الحجج والبراهين ليثبت أنه الدين القويم المتمم لكل الأديان السابقة الناسخ لكل الشرائع التي سبقته، وليس هذا هو حال الشعر الجاهلي لأنه لم يكن يقارع أديانا ولا شرائع سماوية حتى يرد ذكرها فيه جملة وتفصيلا" (13).

وقد يلاحظ القارئ أننا لم نستعرض كل النصوص التي تناولت طه حسين بالدرس والتحليل وقد اكتفينا بالنزول القليل منها لإعتقادنا أن هذه النصوص التي أوردناها قادرة على توضيح الرؤية لمن أراد أن يعرف منهج طه حسين النقدي الذي يعتمد على الشك بحيث لا يقبل أي شئ إلا إذا قبله عقله، لأنه الوحيد الذي يساعده في فهم أي ظاهرة أدبية.

هذا هو طه حسين الذي قلنا عنه أنه شغل الناس بأرثه في أثناء حياته، و ما زال يشغلهم بعد مماته ولذلك لم تتوقف الكتابات حول هذه الشخصية التي استطاعت أن تجذب إليها الناس سواء المؤيدة لأرائه أو المعارضة لها. و من ثمة لانتعجب في تلك الألقاب التي أطلقت على شخصيته و من بين هذه الألقاب، لقب غاندي، و لقب رينو وكذلك لقب فولتار و أبو العلاء المعري لمصر. كما أنه كان جديرا بذلك اللقب الذي لم يطلق على أي أديب عربي قبله أو بعده، وهذا اللقب هو عميد الأدب العربي. حيث أنه لم يحصل عليه عن طريق الصدفة، وإنما انتزعه بفضل كتاباته الجادة التي أوجدت لنفسها مكانة متميزة في المكتبة العربية. و قبل أن ننهي هذه الصفحات حري بنا أن ننبه إلى أن المقال لم يكن يهدف إلى نقد منهج طه حسين التاريخي الذي طبقه في كتابه وإنما يهدف إلى تقديم هذا المنهج في صورته التي بدا عليها. زمن ثمة يتسنى للقارئ المعاصر الذي يفترض بأنه قد اكتسب أدوات معرفية جديدة، قد تعينه على فهم هذا المنهج فهما صحيحا و بذلك يكون الحكم النقدي الذي يصدره عليه خاليا من أي تأثير خارجي.

الهوامش

- (1) أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي، القاهرة مكتبة النهضة المصرية 1973 ص 94
- (2) ستانلي هايمن: النقد الأدبي و مدارس الحديثة، ترجمة د. إحسان عباس، محمد يوسف نجم بيروت دار الثقافة جزء 1، 1985 ص 187.
- (3) محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية طبعة 3 1962 ص 29/28. الثقافة جزء 1، 1958 ص 187
- (4) طه حسين: نقد واصلاح، بيروت دار العلم للملايين طبعة 4 1967 ص 170/169.
- (5) طه حسين: الأدب و النقد، مجلد 5 طبعة 1 بيروت دار الكتاب اللبناني 1973 ص 7/72.
- (6) المصدر السابق ص 76/75.
- (7) المصدر السابق ص 78/77.
- (8) المصدر السابق ص 78.
- (9) المصدر السابق ص 79.
- (10) المصدر السابق ص 75.
- (11) المصدر السابق ص 81.
- (12) محمد لطفي جمعة: الشهاب الراصد، مصر مطبعة المقتطف و المقطم طبعة 1 1926 ص 90.
- (13) مصطفى صادق الرافعي: تحت راية القرآن، بيروت دار الكتاب العربي طبعة 7، 1974 ص 158.

□